طبيبة في عيادتها

كانت هناك عجوز في الستينيات بصحبة ابنها الثلاثيني، فلاحظتُ حرصه الزائد عليها، فهو يمسك يدها، ويصلح لها عباءتها، ويمد لها الأكل والماء، بعد سؤالي عن المشكلة الصحية وطلب الفحوص، فسألته عن حالتها العقلية؛ لأن تصرفاتها لم تكن موزونة، ولا ردودها على أسئلتي، فقال: إنها متخلفة عقليًّا منذ الولادة. تملكني الفضول، فسألته، فمن يرعاها؟ قال: أنا، قلت: نعم الابن، ولكن من يهتم بنظافة ملابسها وبدنها؟ قال: أنا أدخلها الحمام، وأحضر ملابسها، وأنتظرها إلى أن تنتهي، أصفّ ملابسها في الدولاب، وأضع المتسخ في الغسيل، وأشتري لها الناقص من الملابس، قلت: وَلِمَ لا تحضر لها خادمة؟ قال: لأن أمي مسكينة، مثل الطفل لا تشتكي، وأخاف أن تؤذيها الخادمة، دهشت من كلامه ومقدار برّه، وقلت: وهل أنت متزوج؟ قال: نعم، الحمد لله، ولدي أطفال. قلت: إذن زوجتك ترعى أمك؟ قال: هي لا تقصر، وتطهو الطعام، وتقدمه إليها، وقد أحضرت لزوجتي خادمة؛ حتى تعينها. ولكن أنا أحرص أن آكل معها؛ حتى أطمئن عليها من أجل السكر!

زاد إعجابي، وأمسكت دمعتي، واختلست نظرة إلى أظفارها، فرأيتها قصيرة ونظيفة. قلت: أظفارها؟ قال:

قلت لك يا دكتـورة: هي مسكينة، طبعًا أنا، نظرت الأم إليه، وقالـت: متى تشـتري لي بطاطس؟ قال: أبشـري الآن أذهب بـك إلى البقالـة، فطارت من الفـرح، وأخذت تـردد: الآن، الآن. التفـت الابـن، وقـال: والله إني أفـرح لفرحتهـا أكثر مـن فرحة عيـالي الصغـار، تظاهرت بأني أكتـب في الملف؛ حتـى لا يظهر أني متأثـرة، وسألت: ما عندهـا غيرك؟ قال: أنـا وحيدهـا؛ لأن الوالد طلقها بعد شهر. قلـت: أجل، رباك أبـوك، قال: لا، جدتـي كانت ترعـاني، وترعاهـا، وتوفيت، الله يرحمهـا، وعمري عشـر سنوات. قلت: هـل رعتك أمك في مرضـك أو تذكر أنهـا اهتمت بك، أو فرحـت لفرحك أو حزنت لحزنك؟ قـال: يا دكتورة، أمي مسكينة، طوال عمري منـذ أن كان عمـري عشر سنين، وأنا أتولـى أمرها، وأخاف عليها، وأرعاها.

أمسك يد أمه، وقـال: هيا، فلنذهب إلى البقالة. قالت: ألا نذهب إلى مكة؟ استغربت، قلت لها: لماذا تريدين الذهاب إلـى مكـة؟ قالت: أريـد أن أركب الطائرة، قلـت له: لا حرج عليها، لو لم تعتمر، فلماذا تذهب بها، وتضيق على نفسك؟

خرجـا مـن العيـادة، وأقفلت بابهـا، وقلـت للممرضة: أحتاج إلى الراحة، بكيت من كل قلبي، وقلت في نفسي: هذا، وهي لم تكن لـه أمًّا، فقط حملت، وولدت، لم تُرَبِّ، لم تسهر

الليـالي، لم تمرِّض، لم تدرس، لم تتألم لألمه، لم تبكِ لبكائه، لم يجافِهـا النـوم خوفًا عليـه...لم... ولم... ولم.... ومع كل ذلك كل هذا البر!

تذكرت أمي، وقارنت حالي بحاله، فكرت في أبنائي، هل سأجد ربع هـذا البر؟ مسحت دموعي، وأكملت عيادتي، وفي القلب غصة.

آيتـان: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾

(الإسراء: ٢٣-٢٤).